اجترار

بيت "العجوز" قبالة المسجد, دائما ما كانت تجلس تتابع الغادي والرائح.. وجهها صبوح, يفتر ثغرها عن ابتسامة عذبه, تناغي حصى الأرض, تشيعهم بفيض من الدعاوي حتى يبتلعهم البعيد..

أخي باسق ممتد, يدب على الأرض, فيبدو كما نخلة هائلة تركت أرضها وتبحث عن أرض جديدة, وعندما يرتدي جلبابه الصيفي الفضفاض, ويتسلل إليه الهواء وينفخه, يبدو كخيمة تتحرك الهوينى, أو كشبح أسطوري يبحث عن قاتله.. هو يشبهني في الملامح كثيرا رغم تباين القامة, وفارق العمر الذي يقترب من العشر سنين..

عندما أخبرت أمي أن "العجوز" المواجهة للمسجد يلتبس عليها فتحسبه أنا؛ ترقرقت عيناها بالدموع من البهجة, وهي تتخيل المشهد, فالمرأة طاعنة في السن, كليلة البصر, مات عنها زوجها, فجلست تعد الأيام, تنتظر اللحاق به..

قال أخي؛ "طلبت مني أن أقرأ عداد الكهرباء, وأن أقارن القراءة بإيصال الشركة", لم يكن أخي الفارع, بحاجة لكرسي, للوصول للعداد المنزوي في بئر السلم, وربما لهذا السبب طلبت منه "العجوز" أن يفعل, تحسبه أنا "المهندس"..

أجابها أخي, وهو يفرك كفيه محرجا, دونما يُقدم على مجرد المحاولة: "الأمر يحتاج لمختص.."

ضحكت أمي كثيرا كلما تذكرت الواقعة.. هي تخبُر طيبة ابنها, وكأنه في الحياة ضيف شرف, لن يلبث ويغادر.. لم يُكذب أخي الخبر, مات من بعدها بقليل, ذلك الموت "المودرن" المسمى بالفجأة, دونما يُعرف له سبب, هو فقط قضاء الله..

جلست أمي يوما قبالتي, تجتر ذكريات أخي؛ كيف ولدته يوم سوق, وقد أتاها الوجع فيما تشاكسها بائعة الخضار, فانطلقت لتلد كأهون ما يكون, ثم كيف أصابه

مرض "الصرع" وهو ابن العاشرة, وكأن الحياة ضنت عليها فرحتها, ثم الموت يُكمل المأساة ويأخذه إلى غير عودة..

ظلت أمي تحكي عنه, وكأنه حاضر بيننا ما ذهب, تترك مقعده خاليا على السفرة, بجوارها, في المسافة الفاصلة بيني وبينها.. ترى طيفه أينما حلت, وأحيانا تحادثه, وعيناها تلمع بطريقة غريبة, وكثيرا ما سمعتها تخبره؛ أنها لاحقة به عما قريب, فلا يخاف ولا يقلق..

يقينها بفكرة وجوده, جعلني أنا الآخر أراه؛ وهو يرمقنا من خلف سياج الحديقة, وهو يضحك تلك الضحكة الطفولية الجامحة المجلجلة..

شجعني الانشراح البادي عليها ذات مساء, أن أحكي لها عن واقعة, كنت قد نسيتها في خضم الأحداث؛ كنت أسير معه ذات عصر, ومررنا من أمام المسجد, اشرأب عنق العجوز لتتحقق أن ما تراه حق ليس بخيال, العجوز بالفعل لم تكن تعلم بوجود شبيه لي, وهالها أن ترانا سويا, ولكنها ابتسمت بعد حين, بعدما تفهمت الأمر..

حققت أمي وعدها, ولحقت به بنحو عام..

العجوز رحلت اليوم..